الباب الثانى

اختلاف وسائل الدعوة
واقتراح وسائل جديدة

obeikandl.com

obeikandl.com

تمهيد للباب

● وسائل الدعوة عديدة . وهذا ما سنراه في هذا الباب الثاني إن شاء الله تعالى .

- ومن الطبيعي أن تصدر القوانين لتنظيم العمل في هذه الوسائل ، من خطابة ووعظ ، وتربية وتعليم ، وبعوث ، ووسائل أدبية وفنية ، وأجهزة إذاعية وصحافية وتلفازية . . . إلخ .

- وإذا كانت بين الدولة والدعوة علاقة تعاون وتآزر واتحاد ، صدرت القوانين التي تكفل للدعاة أداء واجباتهم في حرية وأمان . وإذا كانت علاقة تضاد وتعارض ، صدرت التشريعات التي تقيد الدعاة وتحرمهم من استخدام الوسائل الدعوية الثقيلة كالتلفاز والإذاعة والصحافة .

● وفي ظل نظام «الهجين» السائد في معظم البلاد المسلمة لا يُسمح لأحد بنقد المكونات العلمانية فيه . وتوضع حدود صارمة للدعوة ، بحيث تدور في نطاق المسموح به ، وهو العقائد والعبادات . وأي خروج على هذا النطاق معناه حرمان «الخارج!» من العودة إلى الدعوة مرة أخرى بتلك الوسيلة .

● وبعض الوسائل مغلق في وجه الدعاة . فدُور النشر الحكومية التي تقذف بمئات الكتب ذات التوجهات العلمانية ، ترفض نشر أي كتاب لا يساير هذه الاتجاهات . وجوائز الدولة تمنح لأنصار التيار الرسمي ، وخصوصاً كبار الرسميين [1] .

وهناك وسائل فنية لا يُقبل الدعاة على استخدامها من تلقاء أنفسهم ، أهمها المسرح والسينما ومسلسلات التلفاز ، وأفلام الكرتون . وهذا ما نتمنى أن توضع له نهاية ، وسيكون موضوعاً للفصل الثالث عشر هنا .

---

(١) حدثت ضجة سنة ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤م في مصر بسبب ذلك ، وتكررت سنة ٢٠٠٥م .

وفي هذا الباب سوف نبحث عن الوسائل الجديدة ، كما بحثنا عن الأحوال الجديدة لدى المخاطبين في الباب الأول ، وكما سوف نبحث عن الجديد والمتطور في المنهج الدعوى في الباب الثالث . وهكذا ندرك أن «الجديد» في الأبواب الثلاثة هو غايتنا ، وهو الجوهر الذي يجعل هذه الدراسة كياناً عضوياً ، ويعطيها طابعاً واحداً ، مميزاً . ويكشف عن الموقف الإسلامي السديد من قضايا تجديد الخطاب الديني .

* * *

obeikandl.com

الفصل السابع

الخطابة والوعظ

تمهيد :

● لا ريب أن الخطابة يمكن أن تصبح وسيلة فعالة للدعوة ، إذا توفرت لها عناصر الخطابة العلمية الأساسية . وأهم هذه العناصر :

● الاستناد إلى كتاب الله تعالى وتفسيره السديد ،

● وإلى السنة النبوية الصحيحة ،

● ثم وَحْدة الموضوع ،

● والارتباط بمشكلات المسلمين المطروحة ،

● واجتناب المرويات الزائفة والإسرائيليات والخزعبلات والخرافات ، كما في كتاب «عرائس المجالس» للنيسابوري حيث يمزج الإسرائيليات بقصص القرآن عن الأنبياء ، ويخرج أكاذيب شنيعة[1] .

- إن الملايين من المسلمين يُهرعون كل يوم جمعة إلى بيوت الله وهم على استعداد قلبي وعقلي لتلَقِّي التوجيه والإرشاد . وفي رحاب الله يسود الإصغاء والخشوع وتتفتح القلوب للتأثر والاستيعاب . لكن معظم خطباء اليوم يبددون هذه الفرص النادرة في صراخ قوامه الإنشاء ، والتكرار ، فيغفو البعض ويضجر آخرون ، وينصرف سائرهم عن الخطيب .

● وأسُّ البلاء هو التطويل الذي يقود إلى تعدد المسائل .

---

(١) طبع مصطفى البابي الحلبي ؛ ط٤ سنة ١٣٧٤هـ - ١٩٥٤م .

obeikandl.com

● وأغلبية الخطباء تفتقر إلى العلم والفقه والمعرفة . وتكثر لديهم الأخطاء التي يعرف كثير من المصلين أنها أخطاء . وأَدْمَنَ كثير منهم القصص الزائفة والخرافية التي ربما تعجب العوام ، ولكنها تسيئ إلى شخصيات وزعامات إسلامية من الصحابة ﷺ ومن غيرهم . وبعض القصص يصدم المسلم ، ويهز إيمانه بدينه ، وبعضها يضلل المخاطبين ، ويقنع الكثيرين بأن الإسلام منفصل عن حياة الناس . ويخفق معظم الخطباء في استخلاص العِبَر من الأخبار والآثار ، كما يعجزون عن فرز الأخبار بمعايير علم الحديث وأصول الفقه .

● ومعظم الخطباء ينقل خطبته من كتاب منشور ، دون أن يراعي تنوع المخاطبين ، واختلاف المكان والزمان . وعلى الرغم من مرور السنين ، لا يطوِّر الخطيب أداءه ، ولا يحاول أن يبلغ مستوى الداعية الباحث الذي يواجه مشكلات الناس المطروحة بالضوابط الإسلامية الشرعية الصحيحة .

● وفي إيجاز ، نرى أن هذه الوسيلة الدعوية الأصيلة قد فقدت فعاليتها . ولابد من بحث وتخطيط وتعليم وبرامج أكاديمية لاستعادتها من جديد وتطويرها .

● وسوف نستقرئ بعض خطب النبي ﷺ ، وخطب عمر بن عبد العزيز ﷺ ، ومنهج المودودي رحمه الله ، لكي نستخلص أهم قواعد الخطابة المنبرية ، ثم ننظر في خطب اليوم وننقدها في ضوء هذه القواعد . والله تعالى من وراء القصد .

* * *

خطبتان للنبي ﷺ

● يقول ابن إسحاق فيما بلغني عن أبى سلمة بن عبد الرحمن إن رسول الله ﷺ خطب المسلمين فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله :

● « أما بعد ، أيها الناس ، فَقَدِّموا لأنفسكم . تَعْلَمُنَّ - والله - لَيُصْعَقَنَّ أحدُكم ، ثم لَيَدَعَنَّ غَنَمَه ليس لها راع ، ثم لَيَقولَنَّ له ربُّه ، وليس له ترجمانٌ ولا حاجبٌ يحجبُه دونه : ألم يأتِك رسولي فَبَلَّغَك ، وآتيتُك مالاً وأفْضَلْتُ عليك؟ فما قَدَّمتَ لنفسك؟ فَلَيَنْظُرَنَّ يميناً وشمالاً فَلا يَرَى شيئاً ، ثم لَيَنْظُرَنَّ قُدَّامَه فلا يرى غير جهنم! فَمِن استطاعَ أن يَقِيَ وَجْهَهُ من النار ولَوْ بِشَقِّ من تمرةٍ فَلْيَفْعَلْ ، ومن لم يجدْ فَبِكَلِمَةٍ طيبةٍ ، فإنَّ بها تُجْزَى الحسنةُ عشرَ أمثالِها إلى سبعمائةِ ضِعْفٍ ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ».

● وقال ابن إسحاق إن رسول الله ﷺ خطب الناس مرة أخرى فقال :

● « إن الحمد لله ، أحمدُه وأستعينُه ، نعوذُ بالله من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا ، من يهدِه اللهُ فلا مضِلَّ لَه ، ومن يُضْلِل فَلا هَادِيَ له ، وأشهد أن لا إله إلاّ اللهُ وحدَه لا شريكَ لَه . إنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ الله تباركَ وتعالى ، قد أفلح من زَيَّنَهُ الله في قلبه ، وأدْخَلَهُ في الإسلامِ بعد الكفرِ ، واختاره على ما سِواهُ من أحاديث الناسِ ، إنه أحسنُ الحديث وَأبْلَغُهُ . أحِبُّوا ما أَحَبَّ اللهُ ، أحبوا الله من كلِّ قلوبكم ، ولا تَمَلُّوا كَلامَ الله وذِكْرَهُ ، وَلا تَقْسُ عنه قلوبكم ، فإنَّهُ - مِن كلِّ ما يخلُقِ اللهُ - يختارُ ويصطفِي ، قد سمَّاه اللهُ خِيرَتَه من الأعمال ، ومُصْطَفاهُ من العبادِ ، والصالح من الحديث ، ومن كل ما أُتيَ الناسُ الحلالُ والحرامُ . فَاعبُدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، واتَّقُوه حَقَّ تُقاتِه ، واصْدُقوا اللهَ صالحَ ما تقولون بأفْواهِكم ، وتَحَابُّوا بروحِ اللهِ بينكم ، إن اللهَ يغضبُ أن يُنْكَثَ عهدُه ، والسلام عليكم »[1] .

---

(١) سيرة ابن هشام ؛ حـ١ ص ٥٠٠،٥٠١- وهناك خطب أخرى للنبي ﷺ في تاريخ الطبري و« العقد الفريد » و « الطبقات » .

كانت خطبته قصداً

● وعن جابر بن سمرة قال : كنت أصلي مع النبي ﷺ الصلوات ، «فكانت صلاته قصْداً وخطبته قصداً»[١]. وشرحه النووي فقال : «أي بين الطول الظاهر والتخفيف الماحق»[٢].

● وكثير من الخطباء اليوم يطيلون خطبهم «الطول الظاهر» وبذلك يتورطون في مخالفات منهجية مُضرة ، ألا وهي : تعدد موضوعات الخطبة واختلاطها وغموضها ، وإملال المصلين ودفعهم إلى النوم أو التبرم والغضب ، إذ يشعرون أن الخطيب يضيع أوقاتهم في غير طائل . والأرجح أن التطويل يفضي إلى تعدد الموضوعات . ووراء ذلك أخطاء كبيرة ، منها عدم التحضير والإعداد والرغبة في محاكاة بعض الخطباء المشهورين[٣].

● ومن المحزن أن نعترف بأن الخطابة كوسيلة للدعوة فقدت فعاليتها لدى الأغلبية من الخطباء على الرغم من اتساع المجال في محطات الإذاعة أمامهم . ولم تفلح برامج التدريب في الارتفاع بمستوى الخطباء ، ومازلنا نعاني العيوب العديدة في الخطب المنبرية والإذاعية ، من شرعية ولغوية ، وأخطاء في تلاوة الآيات القرآنية ، وتحريفات في الأحاديث النبوية . ولَوْلا حرص المسلمين على صلاة الجمعة لما وجد كثير من الخطباء من يجلس بين أيديهم .

● فلو عاد الخطباء إلى السُّنة المطهرة ، وقصروا خطبهم وأحاديثهم ، وأعدوها جيداً ، لأمكن تلاشى الكثير من العيوب التي ذكرتها تواً ، ومن ثم استعادة الدور المؤثر للخطبة المنبرية والحديث الإذاعي .

● وأعتقد أن من الضروري مساعدة الخطباء الشبان بتأليف كتاب يغطى ٥٢ أسبوعاً بخطب مطورة ، وقصيرة ومحكمة[٤]. فإذا نضج الخطيب وتقدم في

---

(١) أخرجه مسلم .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ؛ الشرح ؛ حـ ٦ ص ١٥٣ .

(٣) الشيخ كشك مثال لتطويل الخطبة وتعدد موضوعاتها ، غفر الله لنا وله .

(٤) وفقني الله تعالى إلى تأليف كتاب يضم خطباً متطورة لعام كامل ، نشرته مكتبة وهبه بالقاهرة ٢٠٠٩ م .

الدراسات الإسلامية ، كان له أن يقوم بإعداد ما يشاء من الخطب المناسبة للجمهور في مسجده ، متبعاً القواعد العلمية والشرعية .

- وفي بعض البلاد الإسلامية تحتم تعليمات الأوقاف كتابة الخطبة قبل إلقائها ؛ وفي بعض الأحيان يتحدد موضوعها من قبل السلطات . والكتابة مفيدة دون ريب ، لكن تحديد الموضوعات قد يبعد الخطيب عن المسائل الحيوية المطروحة في مجتمعه المحلي .

انفعاله ﷺ

● وعن جابر بن عبد الله قال : كان رسول الله ﷺ إذا خطب احْمرَّت عيناه وعَلاَ صوته ، واشتدَّ غضبه ، حتى كأنه منذر جيش . . . !

●ويعلق النووي على هذا الخبر فيقول إنه : « يستدل به على أنه يُستحب للخطيب أن يفخم أمر الخطبة ، ويرفع صوتَه ، ويجزل كلامه ، ويكون مطابقاً للفصل الذي يتكلم فيه ، من ترغيب وترهيب . ولعل اشتداد غضبه كان عند إنذاره أمراً عظيماً وتحديه خطباً جسيماً »[1] .

● وهذا يدل على أن خُطبه ﷺ كانت مرتبطة بمشاغل الأمة .

- ومن شرح النووي يتبين أن غضب النبي ﷺ واحمرار عينيه لم يكن يحدث في كل خُطَبه ، بل حين يكون هناك دواعي لذلك . والخبر يدل على شدة انفعال النبي عليه الصلاة والسلام ، وذلك لا يمكن أن يحدث إلا إذا وقعت واقعة عظيمة أو خَطْب جسيم .

● ولا يحتاج الخطباء اليوم إلى رفع الصوت لأن مكبرات الصوت تصل به إلى كل أرجاء المسجد ، بل وتغطى تخومه . والمفروض أنها تستخدم لإيصال الخطبة للمصلين في المساجد الكبرى ، لكن المسئولين في المساجد أسرفوا في استخدامها ، فتعددت الأجهزة وتضخمت بحيث اختلطت موجاتها وتداخلت وأصبح معظم المصلين غير قادرين على فهم ما يقوله الخطيب وهم يخرجون من المسجد وهم

---

(١) صحيح مسلم ؛ شرح النووي ؛ حـ ٦ ص١٥٥،١٥٦ .

يعانون من وطأة الصوت الراعد ، وكأن في آذانهم طبولاً تدق ! وهكذا صرنا بحاجة ماسة إلى العودة إلى الصوت العادي ، دون مكبرات ، كما كان يفعل النبي صلوات الله وسلامه عليه ، وبخاصة في المساجد الصغيرة . أما المساجد الكبرى فالحاجة ماسة لمكبرات الصوت ، شريطة التنظيم الدقيق وعدم الإسراف في عددها وقوتها . ولا بد من تعليمات صارمة من رجال الأوقاف للعمال والفنيين ، لأن النصيحة لا تجدي مع الكثيرين منهم .

- وهناك اعتراف عام بتدني مستوى الخطبة اليوم .
- وكبار الخطباء يخطئون .

- قال الشيخ كشك غفر الله له : « إن الله يوم الاثنين ـ يوم الزلزال في القاهرة سنة ١٩٩٢م ـ كان يخاطبنا خطاباً صريحاً وواضحاً . كان يقول لنا بلسان العظمة : « إنني أنا الله » من أنتم يا سكان الأرض؟ هل لكم قبل بمحاربة الله[١]؟ »

- وهذا خطأ . فالواجب في كل مرة يقول فيها المسلم « قال الله تعالى » أن يتبع ذلك بنص قرآني أو بنص من حديث قدسي صحيح . وغير هذا تقوُّل على الله . ولفظ « لسان » لا سند له من كتاب أو سُنة .

- يقول الدكتور محمود محمد رسلان رئيس قسم الدعوة بكلية أصول الدين بالمنصورة : « أصبحت الخطابة اليوم عبارة عن كلمات تُحفظ وتُلقى ، ومعظمها يدور حول الدنيا وذَمِّها . والناس ملُّوا هذه الأساليب ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بعبارات مجملة ، لا تشفى من أمراض النفوس شيئاً ، ولا تصل إلى أعماق القلوب . وبعضها يخلط الأوامر بالنواهي ، ويجمع بين أمور كثيرة ، ولا يستوْفي الكلام على واحد منها ، فيحذر من ترك الصلاة ، وشرب الخمر ، والزنا والربا وما إلى ذلك من المنكرات كل ذلك في خطبة واحدة »[٢] .

---

(١) الخطب المنبرية ؛ الخطبة رقم ٧٨ - حـ١٤ ص ١٧٣

(٢) انظر كتابه : « الخطابة » ؛ توزيع دار التقوى للنشر والتوزيع ؛ ط٢ سنة ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م ص٦٩.

- والمسلم العادي غير راض عن مستوى معظم الخطباء . هذا في حين أن خطبة الجمعة يمكن أن تكون مفيدة ومؤثرة ومرضية لأشواق الجميع ، إذا خضعت للتطوير الشرعي والعلمي السديد .

- وعلى هذا يتحتم على كل مسئول أن يطرح مشكلات الخطابة المنبرية على بساط البحث ، بُغْيَة تطوير هذه الوسيلة المهمة للدعوة . وإن السكوت على الوضع الحالي للخطابة خطأ جسيم وسوف يسألنا ربنا جل جلاله عن ذلك .

- والتطوير يعني : الالتزام بالقرآن الكريم ، واتباع السنة المطهرة ، واجتناب الخرافات والإسرائيليات ، والالتزام بمشاغل الأمة ، واحترام عقلية المخاطبين المعاصرين المتعلمين والمثقفين .

لغة الخطبة

● وتشير عبارة الإمام النووي في شرح الحديث إلى لغة الخطابة . فهو يقول إنه : « يستحب للخطيب أن يفخم أمر الخطبة ، ويرفع صوته ، ويجزل كلامه ، ويكون مطابقا للفصل الذي يتكلم فيه من ترغيب أو ترهيب».

- ومعنى هذا أن لغة الخطبة يجب أن تتناسب مع الموضوع ، ومع مستوى غالبية المتلقين . وهذا التناسب قد يتطلب جَزْل الكلام وقد يتطلب العامية أحياناً . ولا ريب أن الفصاحة وجزالة الألفاظ ، من مميزات الخطابة الراقية . لكن مستوى المتلقين ربما يتطلب النزول إلى اللهجة التي توصل الحقائق إلى عقولهم .

- فاللغة وسيلة للدعوة ، وليست غاية للدعوة . والداعية يعلِّم الإسلام ولا يعلِّم النحو والصرف والبلاغة .

- وهاهنا لابد من توكيد واجب مهم هو : سلامة الإعراب إذا تكلم الخطيب بالفصحى لأنه قدوة . فإذا اضطر إلى العامية فلا مانع . أما أن يتكلم الفصحى ويحطم قواعد النحو فذلك تقصير شديد وعيب شنيع يجب اجتنابه بكل دقة

وحرص . ومن المحزن أن نلاحظ شيوع ذلك التقصير الشديد في خطب الجمعة ، وفي الأحاديث الإذاعية والتلفازية هذه الأيام .

- ومن تأمل خطبتي النبي ﷺ وشرح النووي لهما نستخلص القواعد التالية :

- قصر الخطبة ،

- وقصر الخطبة يتطلب وحدة الموضوع، (والتطويل يعنى تعدد الموضوعات).

- وارتباط الخطبة بمشاغل الأمة ومشكلاتها ،

- وأنه ﷺ كان يغضب أحياناً فيعلو صوته وتحمر عيناه .

- ومن الممكن أن نقول إن هذه هي القواعد الأساسية للخطبة . ويضاف إليها تحذيرات من التقوُّل على الله تعالى زوراً ، ومن الشوائب التي تختلط بالخطب من : الإسرائيليات والخرافات ، والأخطاء العقدية والفقهية واللغوية . . وسوف نجد هذه القواعد متبعة لدى كبار الخطباء من السلف والخلف جميعاً .

مثال من خطباء السلف

وهذا مثال لخطباء السلف من التابعين الذين التزموا بالسنة في خطابتهم .

إنه عمر بن عبد العزيز ﷺ .

- فيقول ابن سعد : إن عمر بن عبد العزيز كان إذا استطرد في خطبته قال : « استغفر الله ، استغفر الله ! »[1]

-« وكتب عمر بن عبد العزيز إلى « عثمان بن سعد» واليه على دمشق : إذا صليت بهم فَأَسْمِعْهم قراءتك ، وإذا خطبتَهم فأفهمهم موعظتك » .

- فالمهم هو وصول الرسالة إلى المخاطبين . وكان عمر مثالاً للخطيب المسلم ، فكان يُسمعُ جلَّ أهل المسجد موعظتَه وليس بالصياح[2].

---

(١) الطبقات الكبرى ؛ لابن سعد ؛ حـ٥ ص٣٩٥ .

(٢) نفسه ؛ ص ٤٣٢ .

- ويرتبط الأذان بالخطابة عند عمر بن عبد العزيز . فالأذان له عنده أصول . فيُذكر أنه كان لعمر بن عبد العزيز مؤذن :« إذا أذَّن رَعَدَ ! » فسمع جارية له تقول : قد أذَّن الراعبي! فبعث (عمر) إليه : « أذِّن أذاناً سمحاً ، ولا تغنِّه ، وإلاّ فاجلس في بيتك[1]! »

- فلا مجال للصياح المرعب الذي يهز كيان السامعين ! وكان المؤذن عند ذاك لا يملك مكبرات الصوت ، وعلى الرغم من ذلك استبشعت جارية أمير المؤمنين صوته المرعب ! فما بال مؤذنينا اليوم يصمون آذان المسلمين ويثقبونها ، وهم لا يشعرون بهذا البون الشاسع بينهم وبين ما كان عليه السلف الصالح من السماحة والبساطة والرقة ؟!

معركة بسبب التطويل

● ولقد كان جعفر بن سليمان الهاشمي ـ ابن عم الخليفة العباسي المنصور ـ ، والياً على المدينة المنورة . وقد خطب جعفر يوماً فأطال الخطبة . وبعد الصلاة قال له ابن عجلان :« يا هذا ، اتق الله ! تطيل بيانك وكلامك على منبر رسول الله ﷺ ؟ » وغضب الأمير وأمر بحبسه . وعلم ابن أبى ذئب بالمشكلة ، فكلم الأمير فيها ، فقال الأمير : « ما يكفيه أنه يأمرنا فيما بيننا وبينه ، فنصير إلى ما يأمرنا به ، حتى يصيح بنا على رؤوس الناس فَنُسْتَضْعَف؟ فقال ابن أبى ذئب : ابن عجلان أحمق أحمق أحمق ! هو يراك تأكل الحرام ، وتلْبَس الحرام ، فيترك الإنكار عليك ، ويقول لا تُطل بيانك وكلامك على منبر رسول الله (ﷺ)! فقال الوالي : أخْرِجوا ابن عجلان (من السجن) ، ما عليه من سبيل »[2].

- ويتضح من الخبر أن إطالة الخطبة كانت خطيئة في نظر العلماء ؛ وأن الإطالة على منبر رسول الله ﷺ أفحش ، لأنها مخالفة لسنته على منبره الشريف . ولذلك

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ؛ ص ٤٥٨ .

(٢) عبد الرحمن بن أبى حاتم الرازي ؛ آداب الشافعي ومناقبه ؛ تحقيق الشيخ عبد الغنى عبد الخالق ؛ مكتبة التراث الإسلامي ؛ حلب ، سوريا ؛ (دون تاريخ) ؛ ص٤٨، ٤٩.

ثار ابن عجلان على الأمير معرِّضاً نفسه للسجن . ولم تكن ثورته حماقة كما قال ابن أبى ذئب ، بل غيرة على السُّنة وعلى منبر رسول الله في مسجده الشريف .

- والحادث يؤكد أن تطويل الخطبة خطأ جسيم ؛ ولذلك وجدنا أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز يستغفر الله حين يستطرد في خطبته . والتطويل يفضي إلى الخروج عن الموضوع ، وإلى التشتت والتشويش ، وفَوَاتِ الغاية الشرعية من الخطبة المنبرية .

- وإخراج الأمير ابن عجلان من السجن اعتراف بالخطأ وتقدير للباعث النبيل الذي حمله على الاعتراض العلني عليه ، وكان عليه أن يُسِرَّ باعتراضه ، صيانةً لهيبة الأمير بين الرعية . وهذه قاعدة مهمة في منهج الدعوة وآدابها .

المودودي ومنهجه في الخطابة والمحاضرة

● وننتقل إلى العصر الحديث ونختار خطيباً بارزاً ومحاضراً قديراً هو أبو الأعلى المودودي . فكيف كانت خطب المودودي؟

- كانت خطب المودودي تتبع منهجاً خاصاً :
- فهو يعالج الموضوع في سياقه التاريخي ،
- ويحرص على تقديم الأدلة على صحة ما يؤمن به ،
- ويضرب الأمثلة لتيسير فهم المخاطبين ،
- وهو يعبِّر عن أفكاره بأساليب لغوية أدبية قوية ،
- وهو يوجز في القول ، ولا يطيل ويستطرد .

● وكان المودودي حريصاً على إعداد خطبه ومحاضراته :

- فهو يحدد موضوعه ويضع له عنواناً ،
- وهو يدرس موضوعه دراسة عميقة ،
- ثم يسجل النقاط الأساسية في الموضوع ،
- ثم يفصل كل نقطة ،

- وهو يعرف أين ينتهي ، كما يعرف من أين يبدأ[1] .

- بهذه المنهجية العلمية الدقيقة كان المودودي يخلب ألباب المخاطبين ، دون أن يلجأ إلى التهويل أو الإدهاش بقصص خرافية ، وحواديت شعبية . وبهذه المنهجية يعتبر المودودي خطيباً ومحاضراً نموذجياً . وخطبه ومحاضراته جديرة بأن تحتذى . لكن هذا لا يعنى التقليد البليد ، أو الحفظ الأعمى . فإن لكل خطبة فردانيتها التي تجعلها غير قابلة للتكرار أو الاجترار . فالمطلوب هو المنهجية السديدة ، أما الموضوعات فلكل مقام مقال . وهكذا يتحتم على الداعية أن يفكر لنفسه ولظروفه ولجمهوره ومشكلات مجتمعه ، ثم يسهر ، ويجتهد لتشكيل خطبته على الأسس السليمة .

واجب المستمعين

● ويتأثر الخطيب والواعظ (وكل متحدث في ندوة أو جلسة) بحالة المخاطبين من حيث العدد ، ومن حيث الإصغاء . وكذلك الكاتب حين يشعر أن قراءه يتجاوبون معه ، أو العكس . لكن الخطيب والمتحدث أكثر عرضة لتأثير المخاطبين .

- وقد تكون حالة المخاطبين من اللامبالاة ناشئة عن عيوب في الخطيب أو المتحدث نفسه ؛ إذْ يخفق كثيرون من الدعاة في الاستئثار باهتمام المخاطبين ، كما يحدث في خطب الجمعة المكرورة التي لا تتصل بحياة المصلين ومشكلاتهم الحياتية ، أو الدينية ، والتي تغرق في الخرافات والإسرائيليات ، والتي قد تطول حتى تتجاوز الساعة !

- والعلاج هو أن يكون المتحدث واعياً بمشكلات مجتمعه ، وأن يكون قادراً على البحث العلمي لمعرفة توجيهات الإسلام لحلِّها . عندئذ سينتبه الغافل ، ويتيقظ النائم ، ليجد المتحدث آذاناً صاغية .

---

(١) فاروق عبد السلام الصاوي ؛ فقه الدعوة الإسلامية والإعلام ؛ ص٢١٧، ٢١٨ .

- وعلى المتحدث أن يتذكر أن بعض المسلمين تركوا المسجد وهُرعوا إلى اللهو والتجارة ، فنزل قول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ ۚ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ (الجمعة: ١١). فإذا كان ذلك قد حدث والخطيب هو رسول الله ﷺ ، فلماذا لا يحدث أمام كل خطيب آخر؟! وقد تضاعفت المغريات في أيامنا هذه ، حتى منعت بعض المسلمين من صلاة الجمعة ذاتها ، واشتد بريق اللهو وانتشر حتى بلغ الرعاة في قمم الجبال والمعتكفين في محاريب المساجد ، عن طريق الإذاعات والفضائيات وأجهزة الاتصالات الحديثة ، ومكبرات الصوت التي تصرخ بلا ضوابط في السراء والضراء .

- ثم إن الداعية المسلم ليس مسئولاً عن هداية المدعوين ، فَلْيَحْضُر من شاء ، وليتخلف من شاء ، وحسابه عند ربه . وقد يحضر العدد القليل ، وفيهم من شرح الله صدره للعلم ووفقه للعمل . ويُذْكَر أن أحد معلِّمي شيخ الإسلام أحمد بن تيمية كان يشكو قلة العدد وضعف التلاميذ ، ويتبرَّم من ذلك . ولو علم أن أمامه ذلك الطفل النابغة لما شكا وتبرم !

(القصص الزائف للإدهاش!) قصة ثعلبة بن حاطب الأنصاري

● وهي قصة مشهورة بسبب تكرار عرضها على الجماهير في خطبة الجمعة . وهي أنموذج للرغبة في الإدهاش ، وأنموذج لسوء الاختيار وعدم التمحيص ، والاستهانة بأعراض الصحابة ﷺ .

- وترد هذه القصة في كتب التفسير كسبب لنزول قول الله تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾(التوبة: ٧٥-٧٧)

- ويرويها الخطباء في المساجد لبيان وجوب الزكاة وشناعة منعها . فيذْكر أن ثعلبة بن حاطب الأنصاري سأل النبي ﷺ أن يدعو الله أن يرزقه مالاً ، وألح في

السؤال ، فدعا له النبي . واتخذ ثعلبة لنفسه أغناماً ، أخذت تتكاثر كما يتكاثر الدود .

- ولما نزل قول الله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾ (التوبة:١٠٣) رفض ثعلبة إيتاء زكاة ماله وقال : ما هذه إلا أخت الجزية ! ثم علم ثعلبة بنزول آيات فيه ، فهُرع إلى النبي ﷺ يحمل إليه زكاته . لكن النبي رفض قبولها وقال : « إن اللهَ تعالى قد منعني أن أقبلها منك». فجعل ثعلبة يبكي ويحثي التراب على وجهه حزناً وأسفاً .

- ورفض أبوبكر وعمر وعثمان قبول زكاة ثعلبة . ومات ثعلبة في عهد عثمان ، رضي الله عنهم أجمعين .

● وتثير قصة ثعلبة إشكالات تمنع الباحث المسلم من قبولها .

- فهي ـ أولاً ـ شاذة في ضوء الأصول الإسلامية . فالتوبة النصوح التي أبداها ثعلبة كانت كفيلة بقبول زكاته . والله تعالى يقول عن المنافقين المعاندين ﴿ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ (التوبة:٧٤).

- وهي ـ ثانياً ـ مطعون في صحتها . قال القرطبي رحمه الله : «وثعلبة بدري أنصاري ، وممن شهد له الله ورسوله بالإيمان . . فما رُويَ عنه غير صحيح»[١]. وقد قال رسول الله لعمر : «وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم». وثعلبة حضر بدراً وأبلى فيها بلاءً حسناً[٢].

● وهناك قصة أخرى وردت في كتب التفسير كسبب لنزول الآيات السالفة الذكر من سورة التوبة ، لكن الدعاة يغفلونها ، لأنها لا تدهش المصلين ، ولا تصلح خطبة بسبب قصرها .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ؛ جـ ١ ص الآيات ٧٥-٧٧ .

(٢) سيرة ابن هشام ؛ جـ ١ ص ٥٢٢ ، ص ٦٨٨ .

● ومن جهة أخرى يجرح كبار المحدِّثين رَاوِيَيْ القصة ، وهما علي بن زيد ، والقاسم بن عبدالرحمن[1] . ولم يعدِّله سوى الإمام الترمذي ، وأبو حاتم . وجمهور علماء الحديث على أنه : « إذا اجتمع في شخص جرح وتعديل ، فالجرح مقدم ، لأن المعدِّل يخبر عما ظهر من حاله . والجارح يخبر عن باطن خَفِيَ على المعدِّل . فإن كان عدد المعدلين أكثر ، فقد قيل : التعديل أوْلَى . والصحيح والذي عليه الجمهور : أن الجرح أولى ، لما ذكرناه ، والله أعلم »[2] .

● لهذا أقول : إن الرغبة في الإدهاش يجب كبحها بحيث تنحصر فيما يصح من الأخبار . والتمحيص يجب أن يكون دقيقاً ، لكي نتجنب مثل هذه الأخطاء الشنيعة . وتلك مشكلة دعوية عسيرة ، لأن كبار الدعاة يرددون قصة ثعلبة ، ويستبيحون عرضه على المنابر . والصغار يحاكون الكبار! وكلما واجه الخطيب مأزقاً ، ولم يجد موضوعاً ، تذكَّر قصة ثعلبة ، ليتخطى المأزق ، ويقع في مأزق أخطر وأشنع . وتقع تبعات الإصلاح والتصحيح على عاتق أساتذة الدعوة ومعاهد وكليات الدعوة في جامعاتنا الإسلامية بصفة أساسية ، وعلى عاتق كل داعية .

الدعوة إلى ما لا يطاق! قصة سعيد بن عامر : الحقيقية والزائفة

● وهذه القصة أنموذج للدعوة إلى « ما لا يطاق » ، وأنموذج للإدهاش وإثارة الإعجاب ، وكذلك لعدم التمحيص ، والزهد الزائف . فتقول المصادر الإسلامية إن « سعيد بن عامر بن حديم القرشي الجمحي » : « من كبار الصحابة وفضلائهم . . . أسلم قبل « خَيبر » ؛ وهاجر فشهدها وما بعدها . وولاَّه « عمر » حمص . وكان مشهوراً بالخير والزهد . « ويذكر أنه كان يفرق المال الذي يأتيه من عطائه ، وله في ذلك قصة مع زوجته . وتقول الأخبار إن سعيد بن عامر لَقي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فقال له : « إن أهل الشام يحبونك . قال (سعيد) : لأني أعاونهم وأواسيهم . فقال (عمر) : خذ هذه عشرة آلاف فتوسَّع بها . قال (سعيد) : أعطها

---

(١) راجع ميزان الاعتدال ؛ للذهبي .

(٢) مقدمة ابن الصلاح ؛ تحقيق الدكتورة بنت الشاطئ ؛ ص ٢٢٤ .

من هو أحوج إليها مني». وقد مات سعيد سنة ٢١هـ في عهد عمر ﷺ . هذه خلاصة ما ذكره «ابن حجر» عن ذلك الصحابي الجليل [١].

- وفي «كتاب الاستيعاب في أسماء الأصحاب» ذُكر أنه قد بلغ عمر : «أنه يصيبه لَمَمٌ ، فأمَرَه بالقدوم عليه . وكان زاهداً ، فلم ير معه إلا مِزْوَداً وعكازاً وقَدَحاً . فقال له عمر : ليس معك إلا ما أرى ؟ فقال له سعيد : وما أكثر من هذا ؟ عكازاً ، ومزوداً أحمل بها زاداً ، وقدحاً آكل فيه . فقال له عمر : أبِكَ لَمَمٌ ؟ قال : لا . قال عمر : فما غَشِيَّة بلغني أنها تصيبُك ؟ قال : حضرتُ «خُلَيْف بن عَدِي» حين صُلب ، فدعا على قريش وأنا فيهم . فربما ذكَرْتُ ذلك فأجِدُ فترة حتى يغشى عَليَّ . فقال له عمر : ارجع إلى عملك . فأبَى ، وناشده الإعفاء . فقيل إنه أعفاه» [٢].

● هذه هي القصة الحقيقية التي نجدها في المصادر الإسلامية . أما القصة الزائفة التي يرويها بعض الدعاة للحث على الزهد وتحقير الدنيا ولذاتها ، فتقول إن أهل الشام قدموا على «عمر» وشكوا سعيد بن عامر لأنه يحتجب عنهم يومين كل أسبوع . وحقق «عمر» في الشكوى فقال له سعيد : إن لي ثوباً واحداً ، فإذا غسلتُه احتجبت يوماً حتى يجف . وزوجتي مريضة ، فأنا أحتجب يوماً آخر لأداء أعمال البيت نيابة عنها . فرده عمر إلى عمله .

- وتذكر القصة الزائفة أيضاً أن سعيداً كان يفرق راتبه كله على الفقراء ، ثم يعيش على أموال الصدقات ! وأن ذلك يسبب خلافاً مع زوجته .

● وبهذا التزييف يريد بعض الدعاة حث الناس على الزهد في الدنيا وأعراضها الفانية .

● ومن الجلي أن القصة الزائفة الْتَقَطَتْ بعض الحقائق ، ثم ضخمتها ، لإدهاش المخاطبين وإثارة إعجابهم . فقد كان سعيد زاهداً في الدنيا حقاً ، لكن ليس إلى

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ؛ نشر دار الفكر ؛ القاهرة ؛ سنة ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م ؛ رقم ٣٢٧٠ — جـ٢ ص ٤٨ .

(٢) كتاب الاستيعاب ؛ ليوسف بن عبدالله النمري القرطبي ؛ على هامش «الإصابة» ؛ ص ١٢

درجة أن ينسى تعاليم دينه ، فيفرق راتبه كله ، ثم يعيش على الصدقات ، وهو الأمير الذي يجب أن يحافظ على تعاليم الدين ويطبقها ، لا أن ينتهكها . وكيف يمكن أن ينال احترام الناس وهو يعيش على الصدقات؟!

● وقد حقق معه عمر ، لكنْ ليس في مسألة تفريق راتبه أو الاحتجاب عن الرعية يومين كل أسبوع ، بل في مسألة «الغشية» التي كانت تلم به أحياناً . أما تفرقة الراتب والاحتجاب فلا أصل لهما .

– ومن الجلي أن ما تدعو إليه القصة الزائفة غير ممكن تطبيقه في الحياة ، فهو يدخل في «ما لا يطاق» ـ أي أنها تدعو إلى عمل غير شرعي ؛ والداعية الذي يدهش المخاطبين بهذه الأكاذيب لا يستطيع هو نفسه أن يطبقها . ومهما برع الداعية في إدهاش المخاطبين ، فإنهم لن يحاولوا محاكاة القصة! فكأن الداعية يضيع وقته فيما لا طائل من ورائه ، بدلاً من الدعوة إلى الزهد الشرعي الذي مارسه رسول الله وصحابته رضوان الله عليهم ، وهو في جوهره زهد في الحرام . وأما المال الحلال فيشرع البحث عنه والسعي لكسبه ، فهو قوام الحياة للفرد والجماعة .

أصدقاء خطيب الجمعة

● وبعد فهذه وسيلة جديدة مقترحة ، لمساعدة الخطباء في تطوير خطبهم وهي تشبه أي ورشة عمل أو دراسة . فالخطيب يعرض خطبته على لجنة من أهل المسجد قبل أن يلقيها ، ويسمع تعليقات الأعضاء على مضمونها . وبعد إلقائها يستمع إلى آرائهم في الإلقاء . ولا شك في أن ذلك سيكون مفيداً له في عمله الدعوي . وليكن اسم اللجنة : أصدقاء الخطيب .

● لكن أغلب الخطباء سوف يعارضون هذا الاقتراح ، خشية النقد الذي ربما يكون شديداً بسبب كثرة أخطاء الخطيب . ونحن نعلم مدى تدني مستوى الخطابة في هذا العصر . وعلى السلطات الدينية أن تقنعهم بقبول التجربة لصالح الدعوة .

- ويقتضي هذا الاقتراح أن يكتب الخطيب خطبته ، ويناقشها مع اللجنة ، ويعدِّل فيها ويحذف ويضيف ، ثم يبيِّضها ، ويلقيها يوم الجمعة ، قراءةً ، أو عن ظهر قلب .

- وربما يكون عدد أعضاء اللجنة ثلاثة أو اثنين من المتعلمين فقط .

- وفي البداية نجرب هذا الاقتراح في عدد قليل من المساجد ، ولْيَكُنْ بطلب من الخطيب نفسه . وعلينا أن نقنع الخطباء بفائدة هذه اللجان العلمية لهم وظيفياً .

- ويجب أن نتذكر أن ترك الخطيب دون مساعدة ينطوي على خطورة ، وقد يزيد جمهور المصلين على الألف ، وفي بعض المساجد الكبرى ، يتجاوز الآلاف . ونحن نرى الآن أن كبار الخطباء يقعون في أخطاء علمية فادحة ، وبعضهم يخاصم الخطابة العلمية وقواعدها وأصولها ، ويُغرق الناس في الخرافات والتهاويم . وردَّة الفعل تتخذ أشكالاً عديدة ، أولها تبديد فرصة فريدة للدعوة الإسلامية . فبدلاً من تثقيف المصلين دينياً ، يحشو الخطيب أذهانهم بالأخطاء[1] . ويهجر بعض المصلين مسجد الحي ، باحثاً عن خطيب جيد . ويفضل بعضهم تعمد التأخير كيلا يسمع الخطبة !

ولا شك أن ترك خطيب التلفاز والإذاعة دون معاونة علمية ودَعَويَّة فيه خطورة أكبر ، بسبب ضخامة الأعداد من النساء والأولاد الذين يستمعون إليه في البيوت[2] .

وفي هذا يقول المودودي : « إن انتقاد بعضنا بعضاً على أخطائنا ومواطن الضعف فينا من أنفع الوسائل لإصلاحنا الجماعي »[3] . والنجاح في هذا يتوقف على الخطيب نفسه ، ومدى رغبته في إجادة خطبته وتبليغ رسالته الدينية ، كما يتوقف على طريقة عمل « الأصدقاء » أعضاء اللجنة . وقد وضع المودودي ست قواعد لتنظيم عمل النقاد ، وهي :

---

(١) راجع كتابي : رسالة إلى خطيب مسجدنا ؛ دار الاعتصام بالقاهرة ؛ سنة ١٩٩٢ ، ص ٧ .

(٢) أثيرت هذه القضية في مصر في فبراير سنة ٢٠٠٤م- الأهرام ٢٠٠٤/٢/١٩م .

(٣) انظر كتابه : تذكرة دعاة الإسلام ؛ باكستان ؛ ط ٢ ١٣٩٦هـ-١٩٧٦م ؛ ص ٦٠، ٦١ .

١- أن يعتقد الناقد أن الله تعالى شاهدٌ عليه ، ومُحَاسِبُهُ على عمله .

٢-وأن يحرص على أن تكون لهجته مُعَبِّرة بوضوح عن رغبته في الإصلاح .

٣- وأن يعتقد أن نقده قائم على أساس صحيح .

٤- وأن يتكلم بلهجة من يريد الإصلاح ، لا التشهير ولا الإساءة .

٥- وعلى المنقود أن يُصغي لإخوانه بإخلاص ويفكر فيما يقولون بجدية .

٦- وعلى الجميع التزام الإيجاز حتى لا يتحول النقد إلى مراء عقيم[١].

على هذه الأسس نرجح أن تكون جلسات اللجنة حلقات علم مفيدة للجميع . وربما نضيف بعض القواعد التي تحدد أهلية «الأصدقاء» من حيث المؤهلات العلمية ، ومن حيث السن ، والمكانة الاجتماعية ، كما تحدد وجوب أخذ الخطيب بملاحظات اللجنة ، إذا ثبت أنها مستندة إلى نصوص من الكتاب والسُّنة ، ووجوب الأخذ برأي الخطيب إذا استند إلى مثل تلك النصوص .

ويكون اختيار «أصدقاء الخطيب» من قِبَل المصلين الحريصين على أداء الصلاة في المسجد ، وقد يُكْتَفى بعدد محدود منهم . ويعاد انتخاب الأعضاء كل سنة هجرية . وعمل اللجنة يمكن أن يُعتبر حِسْبة ، لأن من عمل المحتسب تعهد الأئمة[٢].

● التسجيلات (لخطب الجمعة وغيرها)

● ومع انتشار «المسجلات» بدأ البعض في تسجيل الدروس والخطب المنبرية لنفسه . ثم تطورت العملية إلى تجارة واسعة . وبعض الخطباء والوعاظ نال شهرة مدوية ، ولذلك انتشرت تسجيلاتهم في البلاد المسلمة وعبر القارات . وكثيراً ما تُسمع خطب الجمعة ومواعظ كبار الوعاظ في الحافلات وسيارات الأجرة . ولجأ بعض الوعاظ الممنوعين في بلادهم من الوعظ والخطابة إلى تسجيل

---

(١) تذكرة دعاة الإسلام ؛ ص ٦٠،٦١ (بتصرف) .

(٢) راجع كتاب «الحسبة في الإسلام» لشيخ الإسلام ابن تيمية ؛ دار الكتاب العربي ؛ ص ١٠

أحاديثهم . ويستطيع المسلمون أن يجدوا الكثير من المواقع على الشبكة الدولية (الإنترنت) التي خصصت لهذا الشيخ أو ذاك . وبهذا زادت أهميتهم وخطورتهم .

● والمفروض أن يسعد كل مسلم بوجود وسائل حديثة للدعوة . غير أن بعض الدعاة يقع في أخطاء صغيرة وكبيرة ، ولا يسع أحد أن يصححها . وبعض الدعاة ليسوا علماء متخصصين ، ولكنهم محبون لدينهم راغبون في نشره . وهؤلاء أكثر من غيرهم رواجاً بين المستمعين والمشاهدين ، وأكثرهم أخطاء أيضاً . إنهم يَتَّصِفُون بالإخلاص والحمية الدينية ، لكنهم يفتقرون إلى النظرة الكلية للإسلام وإلى المعرفة الدقيقة بأصوله العقدية والفقهية . ويبدو بعضهم وكأنه لا يعرف شيئاً عن أصول الفقه ، وعلوم الحديث . ومن هنا تأتي الأضرار من حيث لا يقصدها الداعية .

● ومن الجلي أن القيود الرسمية تقف وراء اللجوء إلى هذه الوسائل . ولو طالبنا بتنظيم التسجيلات لتحاشي الأخطاء ، فإن هذا التنظيم سيجلب مزيداً من القيود المفروضة على بعض الدعاة ، ونحن لا نريد المزيد من القيود . وفي اعتقادي أن إتاحة الفرصة للدعاة عبر الإعلام ، مع تكليف العلماء بنقدهم وتقويم أقوالهم قبل إذاعتها ، هي أسلم الطرق ، والله أعلم .

● ويجب أن نفكر جدياً في طريقة لقياس أثر الخطب المنبرية ، لكي نستطيع تقويم الأداء ، ويستطيع الخطيب أن يطور أسلوبه ، بدلاً من نظام التفتيش المعمول به حالياً والذي أثبت عدم جدواه[1].

ولعلنا الآن نستطيع أن نجمع القواعد العلمية للخطابة فيما يلي

١- الالتزام بكتاب الله تعالى وسُنة نبيه ﷺ .

٢- تجنب الخرافات والتهاويل والإسرائيليات .

٣- كتابة الخطبة كاملة ، أو تحديد نقاطها الرئيسية ، ثم تفصيلها .

---

(١) الاتصال ونظرياته المعاصرة ؛ ص ٤٣ ، ص ٥١ .

٤- وضع عنوان للخطبة .

٥- التزام وحدة الموضوع .

٦- يجب أن يقدم الخطيب أدلة تثبت صحة الرسالة التي يبلغها للناس .

٧- يجب أن تكون الرسالة واضحة ومفهومة لجمهور المصلين ، وضرب الأمثال مفيد في هذا الصدد .

٨- وقت الخطبة لا يجوز أن يزيد على عشرين دقيقة .

٩- لغة الخطيب يجب أن تتناسب مع موضوع خطبته ومع مستوى غالبية المخاطبين .

١٠- رفع الصوت أحياناً ، وإظهار الغضب ، يجب أن يكون بحساب .

١١- يجب أن يكون موضوع الخطبة متصلاً بالمشكلات التي يعيشها الناس .

وهذه بعض واجبات الخطيب :

١- يجب أن يكون الخطيب صاحب سيرة حسنة ومحترمة ، بأن يترفع عن الرذائل، ويجسد في نفسه ما يدعو إليه الناس من التقوى والبر .

٢- يجب على الخطيب أن يتقبل نصائح المدعوين بسرور .

٣- يجب على الخطيب أن لا ينخرط في أعمال مهنية تسيئ إلى مكانته .

٤- وعلى الخطيب أن يعود نفسه على قول « لا أدري » إذا سئل عن شيء لا يعرفه.

٥- ويجب أن يكون الخطيب عالماً ومثقفاً وباحثاً جيداً .

● هذه القواعد تشكل جانباً من « علم الخطابة الإسلامي » الذي هو جزء من « علم الدعوة الإسلامي » الذي نتمنى أن يتم تأسيسه .

مجالس العلم والوعظ

● هي وسيلة تقليدية مهمة ، لا تزال تمارس إلى اليوم في المساجد ، ويقوم بها عادة أئمة المساجد ، الذين تخرجوا من الكليات والمعاهد العليا ، ويتقاضون المرتبات من الحكومات المسلمة . لكن الانحرافات لحقت بها ، كما لحقت

بغيرها من الوسائل . وانتشرت كتب عديدة فيها مواد لكل جلسة . وتختلط فيها حقائق الإسلام بالخرافات والخزعبلات على نحو يثير الحزن !

- ونأخذ مثالاً لمجلس عنوانه : «اطمئنان القلب بمشاهدة قدرة الله تعالى» . ويبدأ المجلس بقول الله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ (البقرة:٢٦٠) وينقل الواعظ كل ما قابله من الروايات حول أسباب النزول ، والتفسير .

● وإلى هنا يمكن أن نتجاوز عن النقل دون وعي ودون مراعاة لحال المخاطبين . لكنه يضيف حكاية فيقول :« إن صياداً في الزمن الأول اصطاد سمكة ، فأخذها منه ظالم وضربه . فقال الصياد : يا ربِّ ، خلقتني ضعيفاً وخلقته قوياً حتى ظلمني . سلِّط عليه خَلْقاً من خلقك ، فاجعله عِبرةً للمسلمين . فلما ذهب الظالم إلى داره شوى السمكة . فلما وضعها على المائدة وأراد أن يتناولها لدغته السمكة بإذن الله تعالى . وأخذ الدود يده ، فلم يقدر على الصبر حتى قطعها ، ثم سرى إلى ذراعه حتى قطعها . ثم نام فرأى في المنام من يقول له : رد الحق إلى صاحبه حتى تنجو من هذه العِلَّة . فلما استيقظ علم ذلك ، فجاء إلى الصياد فأعطاه عشرة آلاف درهم واستحل منه . فلما جعله في حِلٍّ تناثر منه الدود ، فصارت يده كما كانت بقدرة الله تعالى»[1].

● كان المخاطبون في الماضي يتقبلون هذه الحكايات بسرور ورضا . أما الآن فلم تعد تُقبل إلا في أضيق نطاق . وهي تصد الطبقات المتعلمة عن الوعظ الطيب .

اقتراح عملي

إن هذا الواعظ وزملاءه بحاجة إلى كتاب شامل لدروس مفيدة ، تعتمده الإدارات المختصة ، مثلما تعتمد كتب التربية الإسلامية في المدارس ؛ ويكلف الواعظ بشرح الدروس ، والالتزام بها ، ويمنع من تداول تلك «الدرر!» الغنية بالخزعبلات الضارة لدين المسلم وعقله .

* * *

(١) درة الناصحين في الوعظ والإرشاد ؛ مصطفى البابي الحلبي ؛ بمصر ؛ ص ٢١ .